من آيات الله

فى الليل والنهار

قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ [الإسراء: ١٢].

يذكر العلماء: أن الناموس الكونى الذى يحكم الليل والنهار، يرتبطُ به سعىُ الناس للكسب، وعلمُ السنين، والحساب، ويرتبطُ به كسبُ الإنسان من خير وشر، وجزاؤه على الخير والشر، وترتبط به عواقب الهدى والضلال، وفردية التبعية، فلا تزر وازرة وزر أخرى. ويرتبط به وعدُ الله ألا يعذب حتى يبعث رسولاً، وترتبط به سنة الله فى إهلاك القرى بعد أن يفْسُقَ فيها مُترفُوها، وترتبطُ به مصائرُ الذين يطلبون العاجلة، والذين يطلبون الآخرة، وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء فى الدنيا والأخرة، كلها تمضى وفق ناموس ثابت، وسنن لا تتبدل، ونظام لا يتحول، فليس شئ من هذا كله جُزافاً ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾ والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان من آيات الله، تحدث كل آية منهما عن قدرة الله، وعن حكمته، وكل منهما مكملة للآخرى بل ومعلنة عنها، ومحققة لوجودها، فلولا الليل ما كان النهار، ولولا النهار ما عرف الليل.

وكذلك الخير والشر، آيتان من آيات الله فى الناس، كل منهما مكمل للآخر، ومعلن عنه، ومحقق لوجوده، فلولا الخير ما كان الشر، ولولا الشر ما عُرف الخير.

والدنيا والآخرة آيتان من آيات الله فى الناس، فكل منهما مكملة للأخرى، موصولة بها. فلولا الدنيا ما كانت الآخرة، ولولا الآخرة ما كانت الدنيا إلا لعباً

ولهواً، وما غرس الغارسون ما غرسوه فيها من معالم الحق والخير، وما أعدوا فيها هذا الزاد الطيب الكريم، الذى ادخروه للآخرة.

والليل والنهار آيتان من آيات الله، تشيران إلى دقة الناموس الذى لا يصيبه الخلل مرة واحدة، ولا يدركه التعطل مرة واحدة.

ويقول علماء التفسير فى قوله تعالى: ﴿**فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾ أن المقصود بالمحو: ظلمة الليل التى تخفى فيها الأشياء، وتسكن فيها الحركات والأشباح. فكأن الليل **ممحوٌّ** إذا قيس إلى ضوء النهار، وحركة الأحياء فيه والأشياء، وكأنما النهار ذاته مُبْصرٌ بالضوء الذى يكشف كل شئ فيه للإبصار.

فمحو آية الليل: إشارة إلى أن الليل موقفٌ سلبى بالنسبة لحياة الإنسان. يخلد فيه الإنسان إلى الراحة، ويسلمُ فيه نفسه للنوم ليعبئ ذاته بأسباب القوة والنشاط، حتى يعمل فى وجوه الحياة، حين يطلع النهار بآيته المبصرة.

والليل هو الليل، وإن بدد الناس ظلامه بتلك المصابيح التى تجعل منه نهاراً، وأما يشبه النهار، فهو سكن الناس، وهو الظرف الذى يأخذون فيه **حظهم من** الراحة والنوم. قال تعالى فى سورة يونس: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٦٧].

والليل والنهار آيتان من آيات الله، تنبهان الإنسان إلى ما يجب أن يتنبه له، من معرفة الخالق سبحانه وتعالى. ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يؤكد تدبير خلق الله لهذا الكون، مناسباً لحياة الإنسان، لا مقاوماً لها، ولا حرباً عليها، ولا معارضاً لوجودها أو استمرارها. ﴿**هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا**﴾ وقد قرب القرآن الليل من الإنسان حتى جعله أقرب ما يكون إليه من ضروريات حياته، فوصفه بأنه لباس. قال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً**﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال تعالى فى سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩-١١].

وقال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وفى فلق الصبح واتيان الضياء من الشرق مقدمة لطلوع الشمس، ثم اتباعه بليلٍ يسكن الإنسان فيه، تقدير من عزيز عليم: آياتٌ ظاهرات، لكل من أراد أن يتذكر، ولكل ذى لب سميع.

أرأيت؟ إن هذه الآيات تذكرة للخاشعين ينظرون فيما بين أيديهم، وما خلفهم من خلق بديع، فيهديهم تفكيرهم: أن هذا لم يخلق عبثاً، إنما هو كونٌ مدبرٌ من لدن عزيز حكيم ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

فالله سبحانه وتعالى يأتى لنا فى الصباح بالنهار لنسعى للرزق، ولنؤرخ لأنفسنا يوماً جديداً، لنعلم ما مر من زمن، فهذه سَنَةٌ، وبعدها سنون، وهذا حساب لنعاود به التذكار، فنعلم منه ما مر على الأمم السابقة من خير أو شر، فلولا هذا النهار المتكرر ما عرفنا أمس من غد.

وقوله تعالى: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أى أن الليل والنهار إذ يقتسمان الزمن، ويتداولانه فيما بينهما، كان سبباً فى معرفة الزمن، وفى رصد حركاته، وعد السنين وحسابها. ولو كان الزمن ليلاً سرمداً، أو كان نهاراً دائماً، لما عرف الناس للزمن حركة، ولما تولد لهم من حركته الأيام والسنون.

فباختلاف الليل والنهار عرف الإنسان حساب الأجال، ومواسم الأعمال، وعدد الأيام، والجمع، والشهور، والأعوام، وعرف الإنسان مُضّى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات، والإجارات والزمان ومحله من المكان.

قال تعالى فى سورة النور: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤] وقال تعالى فى سورة فاطر: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣].

والآية: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ تختم بقوله تعالى: ﴿وكل شئ فصلناه تفصيلاً﴾. أى وكل شئ مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم، بيناه بياناً غير ملتبس فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا فى ما خلقنا ولا فى ما أنزلنا.. وليس شئ ولا أمر فى هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجزاف.

ودقة الناموس الذى يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل. قال تعالى فى سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦].

* * *